الصهيونية وانبعاث «المسألة اليهودية» في أوروبا

The “Jewish question” and the appearance of Zionism

د. إدريس الكنبوري [1]

PhD. Driss ElGanbouri

ملخص البحث:

تبحث هذه الدراسة قضية ظهور الإيديولوجيا الصهيونية في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتطورها إلى مشروع قومي لليهود في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، وتحديدا قضية ما يعرف بالمسألة اليهودية.

لقد ظهرت الصهيونية في سياق بيئة أوروبية كانت تسودها ظاهرة كراهية اليهود أو اللاسامية، بحيث كانت الصهيونية في ذلك القوت عبارة عن إيديولوجيا عرقية عنصرية متمركزة حول اليهود وحول إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين يكون بمثابة ملاذ يخلصهم من الاضطهاد الذي كانوا يعيشونه في المجتمعات الأوروبية ويمارسون فيها طقوسهم الدينية من دون التعرض للاضطهاد الديني والقومي الذي كانوا ضحاياه في أوروبا طيلة قرون.

وتحاول الدراسة تقديم رؤية جديدة للمسألة اليهودية ترتكز على تفسير السياسة الغربية التي نقلت تلك المسألة إلى الشرق الإسلامي لتصبح مرتبطة بالعالم العربي والإسلام بعد أن كانت خصوصية أوروبية، وذلك في مسعى لجعل العرب والمسلمين والفلسطينيين مسؤولين عن معاناة اليهود تاريخيا وتبرئة الغرب من جريمته، بحيث أصبحت مصطلحات كالهولوكوست والمحرقة وكراهية اليهود تستعمل ضد العرب والفلسطينيين، وذلك بهدف تبييض صفحة الأوروبيين.

[كلمات مفاتيح: المسألة اليهودية - الهولوكوست - الصهيونية - اللاسامية - الحل النهائي]

Abstract

This study examines the emergence of Zionist ideology in Europe in the late 19th century and its concretization in the State of Israel during the first half of the 20th century, with a particular focus on the «Jewish Question.»

Zionism emerged in a European context plagued by anti-Semitism and hatred of Jews. It was a racist ideology centered on the idea of establishing a refuge state where all the Jews of the world could live in peace and practice their religion without being subjected to the kind of

(1) باحث في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان. المغرب.

inquisition they had suffered for centuries.

The study examines the issue of the transfer of this «Jewish Question» from the West to the Arab world, and how the West has manipulated international opinion to make Arabs, and particularly Palestinians, responsible for Jewish suffering, to the point of transferring the themes of the Holocaust, the Shoah, anti-Semitism, and others to the Arab world in order to whitewash Western history.

[**Keyswords**: The Jewish Question, The Holocaust, Zionism, Anti-Semitism, The Final Solution].

مدخل:

كشف العدوان الصهيوني على غزة الذي بدأ شهر أكتوبر 2023 واستمر لأشهر عدة عن شبكة من المفاهيم والمصطلحات التي انتشرت في وسائل الإعلام الغربية وعلى ألسنة المسؤولين الإسرائيليين والأمريكيين والأوروبيين وعدد من المفكرين والمثقفين في الغرب، من مثل: اللاسامية وإبادة اليهود والمحرقة والهولوكوست وكراهية اليهود والقضاء على الجنس اليهودي؛ حتى إن الرئيس الأمريكي جو بايدن قال في خطابه خلال الأيام الأولى لحرب غزة إن المقاومة الفلسطينية «تريد محو الوجود اليهودي»(1)، بينما وصف الرئيس الفرنسي مانويل ماكرون عمل المقاومة بأنه «محرقة نازية ضد اليهود»(2). ولم يقتصر الأمر على وسائل الإعلام الغربية أو المسؤولين السياسيين الغربيين، بل طال فلاسفة أوروبيين لهم مكانتهم في الحقل الثقافي والفلسفي الغربي، وعلى رأس هؤلاء الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس الذي يعد آخر ما بقي من مدرسة فرانكفورت النقدية، إذ وقع على بيان رفقة ثلاثة مفكرين ألمان آخرين يؤيد فيه دولة إسرائيل ويصف ما تقوم به المقاومة بـ«المذبحة»(3).

هذه الشبكة المفاهيمية التي جرى استعمالها بكثرة وعلى نطاق واسع في الخطاب الإعلامي والسياسي والثقافي في الغرب إبان حرب غزة أبانت عن وجود محاولة في العقل الغربي في توطين المفاهيم التي نشأت ضمن سياق التجربة التاريخية الأوروبية في العقل

(1) STATEMENT FROM PRESIDENT JOE BIDEN ON INTERNATIONAL HOLOCAUST REMEMBRANCE DAY In :

https://china.usembassy-china.org.cn/statement-from-president-joe-biden-on-international-holocaust-remembrance-day

(2) Le Monde. 8 février 2024.

(3) Principles of solidarity. A statement. In: https://k-larevue.com/en/principles-solidarity-statement-habermas/

العربي والإسلامي، كما أبانت عن رغبة سيكولوجية في الوعي الغربي في التحلل من المسؤولية التاريخية عما يسمى في الكتابات التاريخية الغربية بـ«المسألة اليهودية» عبر إلقاء مسؤوليتها على العرب والمسلمين، كما لو أنه يريد التخلص من جمرة حارقة برميها على الآخرين.

أولا: في أصل «المسألة اليهودية»

يمكن تعريف «المسألة اليهودية» أو «المشكلة اليهودية» بأنها المجال البحثي الذي يدرس الوجود اليهودي في المجتمعات الأوروبية والمشكلات التي كان اليهود يطرحونها على هذه المجتمعات خلال القرون الماضية، على الأصعدة الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وإشكالية اندماجهم في هذه المجتمعات، وقضية التعايش مع الأوروبيين المسيحيين، وطبيعة حياة اليهود الانعزالية داخل المعازل السكنية أو الغيتوهات على هوامش المدن الأوروبية.

ويعود أصل المسألة اليهودية إلى العصور الوسطى الأوروبية؛ ففي القرن الثالث عشر انتشرت في بريطانيا ثم في عموم أوروبا أسطورة تقول بأن هناك «شاهدا» على صلب المسيح لا يزال حيا ويعيش في بريطانيا، يدعى «كارطافيلوس» Cartaphilus، وإن هذا الشخص عندما كان المسيح يساق إلى الخشبة لصلبه اقترب منه ودفعه من ظهره وصرخ فيه: «اسرع، لماذا تسير ببطء؟»، فرد عليه المسيح: «أنا سأذهب، ولكنك ستظل تنتظر عودتي»[1]، ومن هذه القصة الخرافية ظهرت أسطورة «اليهودي التائه» التي رافقت اليهود في أوروبا طيلة القرون التالية.

ولكن إذا كانت المسألة اليهودية قد ظهرت في العصور الوسطى فإن خلفياتها الدينية والتاريخية تعود إلى حقبة صلب المسيح الإنجيلي، عندما اتهم المسيحيون اليهودَ بكونهم مسؤولين عن تلك الجناية، وظلت تلك الجناية تعيش في نفوس المسيحيين زمنا طويلا، وبسببها انتشر العداء ضد اليهود في أوروبا المسيحية وظهرت نزعة اللاسامية. وقد عكست كتابات علماء الكنيسة الأوائل، مثل القديس أوغسطين، هذه الكراهية لليهود بسبب اتهامهم بقتل إله النصارى، إذ كتب أوغسطين عام 427 بأن اليهود «هم قتلة السيد المسيح، لأنهم رفضوا الإيمان به»[2].

(1) James Hocart : La question juive: cinq conférences. Paris, Éditions Fischbache, 1899. P 34-.

(2) Léon Poliakov : Histoire de l’antisémitisme. L’Age de la foi. Calmann-Lévy,1981. P 34.



والواقع أن المسيحيين كانوا يجدون في التوراة اليهودية ما يدينهم، وليس في الإنجيل المسيحي فحسب، فقد ورد في سفر الخروج من العهد القديم في الإصحاح رقم 32: «وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة»، أي عنيد لا ينصت، ومثل هذه الفقرات الكثيرة المتناثرة في العهد القديم كانت تثير جدالات بين المسيحيين واليهود حول تأويلها؛ ولعل هذا بالمناسبة ما جعل العلماء اليهود منذ وقت مبكر أسرع إلى إنشاء مدرسة تأويلية ترتكز على الهيرمينوطيقا والتفسير الرمزي للنصوص الدينية.

خلال العهد الروماني، عندما اعتمد الإمبراطور قسطنطين العظيم (306-337م) المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية، أصبح اليهود يمثلون الديانة المحرفة مقارنة بالمسيحية، فكانوا يتعرضون للاضطهاد على يد المسيحيين الذين أضافوا إلى التهمة الأصلية تهمة الهرطقة الدينية؛ وكان حراس الديانة المسيحية من البابوات والقساوسة آنذاك يحاربون المذاهب المنحرفة في المسيحية بعد الانشقاقات التي حصلت عقب مجمع نيقية عام 325 للميلاد، وقد وجدها اليهود فرصة للتقرب من الكنيسة فشرعوا يبلغون بالمسيحيين الهراطقة، وهو ما ضاعف كراهية المسيحيين لهم.

وفي الوقت الذي بدأت فيه الكنيسة في القرن الثالث عشر تكافح ضد تسرب الفلسفة اليونانية التي كانت متهمة بالإلحاد واعتماد العقل لتحصين المسيحية من المذاهب الدخيلة، ظهر الاهتمام مجددا بالديانة اليهودية وما تحمله كتبها من انحرافات أو طعن في النصارى، فبدأ رجال الدين في تعقب مضامين التلمود بحثا عما يدين اليهود، وإذاك انطلقت موجة جديدة من التنكيل بهم. وقد حاول اليهود في البداية الدفاع عن التلمود أمام الإمبراطور الروماني فريديريك الثاني، وتبرئته من أي تهمة بالإساءة إلى المسيح والنصارى، غير أن أحد كبار رجال الديانة اليهودية الذي اعتنق المسيحية وأصبح راهبا من الطائفة الدومينيكانية، ويدعى نيكولا دونان، شرح للبابا غويغوار العاشر أن التلمود «كتاب غير أخلاقي ومهين للمسيحيين»، فوجه البابا رسائل إلى ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة وأراغون يطلب فيها منهم فتح تحقيق في الأمر، وعندما تم التحقق من أقوال اليهودي المنشق بدأت ملاحقة اليهود وحرق جميع نسخ التلمود الموجودة بحوزته[1].

ولم يكن اليهود أسعد حالا مع حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا في القرن السادس عشر، ذلك أنهم تصدوا لكل دعاوى الإصلاح الديني في اليهودية التي دعيت بالهاسكالا، وحافظوا على حياة العزلة والانغلاق داخل الغيتوهات، وحاول مارتن لوثر كسبهم إلى صف

(1) نفس المرجع. ص 264

الإصلاح الديني ومغازلتهم بالأصل اليهودي للمسيح الذي يتبعه المسيحيون، وعندما فشل في محاولاته انقلب عليهم وألف كتابه الشهير «عن اليهود وأكاذيبهم» سنة 1543، وفيه شن عليهم هجوما عنيفا ووصفهم بكارهي السيد المسيح، وقال إن الدليل على أن الرب أنزل عليهم لعنتهم أنهم خسروا جميع الحروب التي دخلوها عبر التاريخ، كما وصفهم بأنهم «شعب معلون ومنغلق»[1].

ثانيا: نشأة اللاسامية

ظهرت حركة معاداة السامية في ألمانيا أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن نشر الصحافي ويلهلم مار كتابه «مرآة اليهود» في ستينيات القرن الماضي، الذي وصف فيه اليهود بأنهم «جذام العصور الحديثة»[2]. لكن الحرب الفرنسية البروسية التي بدأت عام 1870 شغلت الألمان عن هذه القضية، إلى أن عادت لتطرح نفسها بقوة بعد الحرب عام 1878، في ظل مخلفات الحرب الاجتماعية والاقتصادية، وتضخم الشعور بالانتماء القومي الألماني، والأزمة المالية، فتم إلصاق هذه الأزمات باليهود وبدأت ظاهرة «مطاردة اليهود»، ومن تم انتقلت الظاهرة إلى النمسا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وروسيا ورومانيا، وانتقلت إلى الجزائر حيث كان يوجد الفرنسيون المستعمرون[3].

عانى اليهود في أوروبا شتى صنوف القتل والتعذيب والاعتقالات والعنف، فقد تحولوا إلى «كبش الفداء» في المجتمعات الأوروبية التي كانت تلصق به جميع المصائب التي تصيب الأوروبيين، كالأمراض والأوبئة وتلوث المياه وقتل الأطفال، لأن اليهود أصبحوا في أعين الأوروبيين رمزا للعنة والفساد، وإذ كان المسيحيون يفسرون مختلف ظواهر الطبيعة بإرادة الرب فقد كانوا يؤمنون بأن اليهود الذين يعيشون بينهم هم سبب نزول البلاء عليهم. وخلال القرن التاسع عشر تصاعدت الكراهية تجاه اليهود، ما أدى إلى تعريضهم للعنف والقتل واقتحام ونهب بيوتهم وهدمها، وحرمانهم من مزاولة بعض المهن والوظائف مثل السكة الحديدية والطيران، ومنعهم من دخول الجمعيات المنتخبة، ومن امتلاك الأراضي،

(1) Martin Luther, Des Juifs et de leurs mensonges. Traduit de l'allemand par Johannes Honigmann. Introduction et notes par Pierre Savy. Paris, Honoré Champion 2015. P 57.

(2) Didier Francfort : Pascal Ory, De la haine du juif. Essai historique. Revue d'histoire culturelle. N5/2022.

(3) James Hocart :La question juive. P 1213-.

وسمح لهم بالتجنيد لكن دون حمل السلاح. وأصبح اليهود يعيشون في ظروف صعبة، يتكدس أفراد العائلة الواحدة في بيت صغير، وينتشر بينهم مرض التيفوس. وفي خمسة وثلاثين دولة أوروبية آنذاك لم يكن يسمح بالإقامة إلا لثلاثة أصناف من اليهود: الأثرياء والحاصلون على شهادات علمية والعاهرات[1].

وتقول المفكرة اليهودية الأمريكية ذات الأصل الألماني حنا أرندت إن نزعة اللاسامية أثناء القرن التاسع عشر كانت تنتشر حتى في أوساط المثقفين الأوروبيين، ولم تعد تقتصر على العامة، وخلال الثورة الفرنسية كان فلاسفة الأنوار الفرنسيون يكرهون اليهود لأنهم كانوا يرون فيهم بقايا القرون الوسطى المظلمة[2].

ومع ظهور النزعات القومية الأوروبية، وحروب القوميات بين الدول الأوروبية في أعقاب الثورة الفرنسية، اشتد التضييق على اليهود الذين أصبحوا نشازا وسط المجتمعات الأوروبية التي كانت تسعى إلى البحث عن عناصر التجانس العرقي والوحدة القومية في إطار الدولة القومية الحديثة، حيث تحولوا إلى جسم غريب داخل الدول الحديثة، وأدوا ثمنا باهظا في النزاعات القومية بين الأوروبيين[3].

في ظل هذا المناخ السياسي والثقافي الجديد طرحت المسألة اليهودية كمعضلة في حاجة إلى حل، ولم يحصل ذلك إلا بفعل الصدام بين اليهود والقوميات الأوروبية الجديدة. بيد أن أسلوب طرح هذه المسألة في العصر الحديث اختلف عنه في العصور الوسطى الأوروبية، حيث كانت تطرح من زاوية الكراهية والحاجة إلى التخلص منهم عبر إبادتهم أو طردهم أو عزلهم، بل صارت تطرح في ضوء المفاهيم الحديثة التي جاء بها عصر الأنوار، أي الديمقراطية والدولة القومية وحقوق الإنسان والمواطنة، ومن هنا سوف نلاحظ تعدد المداخل التي طرحت بها المسألة اليهودية، وذلك بحسب تعدد هذه المفاهيم والتركيز على واحد منها يعتبره صاحبه المدخل الأوفق لحل المعضلة اليهودية.

لقد كان الصدام الأول الذي حصل في العصر الحديث بين اليهود وأوروبا هو ذاك الذي حصل بسبب نشوء الدولة القومية، لذا كان من الطبيعي أن يكون المدخل القومي هو

(1) Léon Poliakov : Histoire de l'antisémitisme. P 15.

(2) Hannah Arendt: Sur l'antisémitisme. Les origines du totalitarisme. Paris, Gallimard. 1973. Pp 12 et 90.

(3) Enzo Traverso : La fin de la modernité juive. Histoire d'un tournant conservateur. Paris, La Découverte. 2013. P 18.

الذي فرض نفسه على فئات من اليهود الأوروبيين، خاصة في ألمانيا؛ فظهرت الصهيونية بوصفها إيديولوجيا قومية لليهود من أجل إنشاء وطن قومي خاص بهم أسوة بالقوميات الأوروبية. من هنا ظهرت دعوة النمساوي ثيودور هرتزل الذي يعرف بأنه «الأب الروحي للدولة اليهودية»، فقد نشر عام 1896 كتابه الشهير «الدولة اليهودية» الذي اعتبر فيه أن «الدولة اليهودية ضرورية للعالم»، وقال: «إنني أرى أن المسألة اليهودية ليست دينية ولا اجتماعية، بل قومية»[1].

وقد نشر كتاب هرتزل بعد أربعة عقود من صدور مقال كارل ماركس «عن المسألة اليهودية» التي نشرت عام 1843، إلا أنها لم تلق نفس الرواج الذي لقيه كتاب هرتزل بين اليهود الأوروبيين رغم يهودية ماركس، والسبب في ذلك أن هذا الأخير طرح المسألة اليهودية في إطار المشروع الاشتراكي، بينما طرحها هرتزل في إطار المشروع القومي. ذلك أن هرتزل انطلق من مبدأ رفض ذوبان اليهود Assimilation في المجتمعات التي يعيشون فيها، واقترح بديلا للذوبان إنشاء دولة قومية خاصة باليهود، بينما كان ماركس يقترح حل المسألة اليهودية في إطار دولة اشتراكية يندمج فيها جميع المواطنين بصرف النظر عن عقائدهم.

كتب ماركس مقاله ذاك ردا على الفيلسوف وعالم اللاهوت الألماني برونو باور(1809-1882) الذي نشر كتابا تحت عنوان «المسألة اليهودية» عام 1843، انتقد فيه سعي اليهود الألمان إلى البحث عن خلاصهم الخاص كيهود لا كألمان، ووصفهم بالأنانية، لأنهم لا يعملون مع الألمان من أجل انعتاق ألمانيا بشكل عام ومن أجل انعتاق البشرية. واعتبر باور أن لا أحد في ألمانيا حصل على حريته، وأن الاضطهاد الذي يشكو منه اليهود في ألمانيا لا يقتصر عليهم وحدهم بل يطال جميع المواطنين الألمان. ورأى باور أنه إذا كان اليهود يرون وجود تناقض بينهم وبين المسيحيين فذلك راجع إلى تشبث كل طرف بدينه، ولكي يتم التخلص من هذا التناقض والعمل المشترك من أجل التحرر الجماعي فيجب أن يتخلص الطرفان من الدين ويعتنقا العلمانية والنزعة النقدية والعلمية في إطار العلاقات الإنسانية.

رفض ماركس هذا التصور وانتقد باور بشدة، معتبرا بأنه يقترح حلا غير قابل للتطبيق طالما أنه يريد حل معضلة الوجود اليهودي في ألمانيا بدمج اليهود داخل دولة مسيحية، وفي الوقت نفسه يريد منهم التخلي عن ديانتهم اليهودية، الأمر الذي لن يكون ممكنا في ظل احتفاظ الفرد الألماني بمسيحيته. في مقابل ذلك اقترح ماركس نقد النزعة اللاهوتية في

(1) Théodore Herzl : L'État des Juifs. Suivi de «Essai sur le sionisme: de l'État des Juifs à l'État d'Israël», par Claude Klein. La Découverte.2003. p 23.

اليهودية والمسيحية معا، وتخلي كل طرف عن تلك النزعة في ظل مجتمع خال من أشكال الاستيلاب الاقتصادي. وقد انتقد اليهود لجشعهم وحبهم للمال والربح، باعتبار تلك القيم التي عرف بها اليهود هي نفسها القيم الرأسمالية، حيث كتب يقول: «إن القومية الخرافية لليهودي هي قومية التاجر، إنسان المال بشكل عام»[1]، كما كتب يقول أيضا: «المال هو إله إسرائيل المتحمس الذي لا ينبغي أن يوجد إله آخر أمامه»[2].

ولدى قيام الثورة البلشفية في روسيا سار فلاديمير لينين في نفس التوجه الماركسي المشار إليه، فقد اعتبر أن الدعوة إلى هوية قومية لليهود هي دعوة رجعية ومعادية للبروليتاريا، ورأى أن الحل للمسألة اليهودية يكمن في «وضع حد للخصوصية اليهودية»[3].

غير أن هذه الحلول للمسألة اليهودية، في إطار قومي أو اشتراكي، لم تلغ الحل التقليدي القديم للمسألة اليهودية، المتمثل في الإبادة الجماعية التي كانت شائعة في العصور الوسطى الأوروبية. ففي عهد النازية في ألمانيا خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي عاد هذا الحل إلى الواجهة مع هتلر، وظهرت قضية المحرقة النازية والهولوكوست. ولم يكن مفهوم «الحل النهائي» الذي رفعته النازية في وجه الوجود اليهودي ابتكارا ألمانيا كما يعتقد الكثيرون ممن أرادوا إعطاء «الحل النهائي» خصوصية ألمانية مرتبطة بالإيديولوجيا النازية، وإنما كان مجرد استعادة لتجربة تاريخية انتشرت في أوروبا المسيحية طيلة قرون

وقد شجعت النازية والهولوكوست أوروبا وأمريكا على دعم اليهود في إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، كحل نهائي للمسألة اليهودية الذي كانت عنصر إزعاج للعقل الأوروبي باستمرار، وشكلت فلسطين نقطة التقاء المصالح بين اليهود والغرب، فاليهود باغتصاب فلسطين سوف يتمكنون من إنشاء دولة قومية لهم على غرار الدولة القومية الأوروبية التي طالما حلموا بها، والغرب سوف يتخلص من المسألة اليهودية بإجلائهم إلى فلسطين؛ وقد شكلت هذه الصيغة واحدة من المداخل التي كانت مطروحة طيلة قرون لحل المشكلة اليهودية، وهو مدخل الطرد، لأن تجميع اليهود في فلسطين كان بمثابة طردهم خارج بلدان أوروبا.

(1) كارل ماركس: عن المسألة اليهودية. بيروت، دار الجمل. ترجمة نائلة الصالحي. الطبعة الأولى 2003. ص 57.

(2) المرجع نفسه، ص 56.

(3) لينين: نصوص حول المسألة اليهودية. القدس، منشورات صلاح الدين. الطبعة الأولى 1980. ترجمة جورج طرابيشي. ص 32.

إن الملاحظ أن نشأة دولة إسرائيل لم تحل المسألة اليهودية بشكل نهائي، لأن اليهود ظلوا يعيشون في أوروبا وأمريكا بالرغم من قيام دولتهم القومية، ومن تم ظلت تلك المسألة مطروحة كمعضلة قائمة، سواء من الناحية السياسية بسبب الأعباء التي طرحها ويطرحها وجود إسرائيل على الغرب من حيث الدعم والمساندة والتمويل، أو من الناحية الثقافية بسبب استمرار وجود اليهود في البلدان الغربية. وفي عام 1954 سوف ينشر الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر كتابه «تأملات حول المسألة اليهودية»، حاول فيه أن يطرح تلك المسألة من زاوية المدخل الديمقراطي، وليس من زاوية المدخلين القومي والاشتراكي.

انطلق سارتر من التحليل النفسي والثقافي للغرب في تحليله للمسألة اليهودية، وخلافا لجميع الكتابات السابقة التي كانت تلقي اللوم على اليهود في رفضهم الاندماج في المجتمعات الأوروبية وسعيهم إلى اختيار حياة العزلة، صب سارتر اللوم على الثقافية الأوروبية التي صنعت من اليهودي ذاك الشخص الذي يرفض الاندماج، وقال إن نزعة اللاسامية لم تنتشر في أوروبا بسبب وجود اليهود بل بسبب موقف الأوروبيين منهم، وبحسب رأيه فإن «العدو الحقيقي للاندماج ليس هو اليهودي بل الشخص اللاسامي»[1]، وقال إن المشكلة اليهودية نشأت بسبب اللاسامية، لذلك فإن المشكلة التي ينبغي حلها هي مشكلة اللاسامية وليس المشكلة اليهودية[2]، والحل النهائي الذي اقترحه هو خلق مجتمع ليبرالي «ملموس»[3].

(1) Jean-Paul Sartre : Réflexions sur la question juive. Gallimard 1954. P 176.

(2) المرجع نفسه، ص 178.

(3) المرجع نفسه، ص 177.

ثالثا: المسألة اليهودية عربياً

لا بد في مضمار الحديث عن المسألة اليهودية في أوروبا من إطلالة على طبيعة تعامل المثقفين العرب خلال النصف الثاني من القرن العشرين مع هذه القضية. صحيح أن المسألة اليهودية ـ كما تمت الإشارة ـ لم تكن قضية عربية أو إسلامية، فقد نشأت في داخل المجتمعات الأوروبية في صدام بين المسيحيين واليهود لأسباب دينية ثم قومية، بيد أن هذا لا يعني أن النقاش حولها في أوروبا لم تصل إلى العالم العربي.

ويعد المفكر الجزائري مالك بن نبي أول مثقف عربي بحث المسألة اليهودية، فقد خصها بكتاب حمل نفس العنوان، أثار فيه بعض جوانب التاريخ اليهودي في أوروبا، وقدم ما يمكن أن نعتبره «رؤية عربية» لهذه القضية، من منطلق تحليل الصهيونية ضمن إطار الفكر الاستعماري الغربي الحديث.

لقد تطرق بن نبي إلى المسألة اليهودية، ليس باعتبارها ظاهرة مستقلة تحتاج حلا، كما حصل في الفكر الأوروبي، بل كجزء من ممارسة النقد على الحضارة الغربية. فقد رأى أن حضارة الغرب تعرضت لنوعين من الانحراف، الأول عندما اختارت التخلي عن المسيحية والرجوع إلى وثنية اليونان والرومان، والثاني عندما سلمت مفاتحها إلى اليهود في العصر الحديث. وطرح سؤالا جوهريا لم يسبق أن طُرح قبله: لماذا اختار اليهود بعد السبي البابلي وهدم الهيكل التوجه غربا ناحية أوروبا المسيحية لا شرقا في اتجاه آسيا، بالرغم من عداء المسيحيين لليهود وتخلف أوروبا في ذلك العصر؟[1].

وقد وجد مالك الجواب عن ذلك السؤال في هجرة القديس بولس من دمشق إلى أنطاكية للتبشير بالمسيحية بعد تخليه عن يهوديته، فرأى من تم أن تلك الهجرة تشكل أول التقاء بين اليهود والحضارة الأوروبية الحديثة، حيث أصبحت اليهودية جزءا من الثقافة الأوروبية وتغلغلت في كامل مفاصلها، وبدأ اليهود يقبضون على زمام الاقتصاد والتجارة والثقافة والإعلام؛ بل إن الحضارة الأوروبية الحديثة أصبحت بيد الفئات اليهودية التي تتحكم فيها، حتى صار «اليهود يفكرون وأوروبا هي التي تعمل»، بحسب تعبيره في كتابه «المسألة اليهودية».

لقد شكل انتقال اليهود إلى أوروبا المسيحية والمراهنة عليها لتأكيد تميزهم الاجتماعي والديني والثقافي بداية ما سوف يحصل لهم خلال القرون الماضية من اضطهاد وتنكيل وإبادة، لأن تلك الهجرة كانت قطيعة مع الشرق مهد الديانة اليهودية والأكثر قربا إلى المزاج

(1) مالك بن نبي: المسألة اليهودية. بيروت، دار الفكر. الطبعة الخامسة، 2012. ص 43.

الثقافي اليهودي. وهنا طرح بن نبي إشكالية جديرة بالفحص: لماذا احتضن الغرب الجماعات اليهودية رغم كراهيتهم للمسيح والمسيحية وعدم اعترافهم بالمسيح ومريم عليهما السلام، واتخذ موقفا عدائيا من العرب والمسلمين رغم إيمانهم بالسيد المسيح وأمه عليهما السلام؟.

لقد وجد مالك بن نبي التفسير في الانحراف الأول الوثني الذي تعرضت له الحضارة الأوروبية بعد تخليها عن المسيحية، فمع الانتقال نحو العلمانية والرأسمالية أصبحت الحضارة الغربية حضارة نفعية مادية، لذلك وجدت في الجماعات اليهودية الحليف المناسب للهيمنة والتوسع، لأن اليهودي «ليست لديه وراء علاقاته العائلية والعنصرية مشاعر، وإنما هي أفكار وبرامج»، فكان من الطبيعي أن يجد الغرب في اليهود الأداة التي يوظفها من أجل مصالحه.

بيد أن مالكا يرى أن العلاقة بين اليهود والحضارة الغربية هي أكثر تعقيدا مما يبدو في الظاهر، فإذا كان الغرب ينطلق من رغبته في توظيف اليهود لأغراضه فإن اليهود هم أيضا يسعون إلى توظيف الغرب لتحقيق أهدافهم، إذ يقول بأن»أوروبا بالنسبة لليهودي هي مجرد مرحلة ووسيلة ترمي إلى التطلعات البعيدة للشعب المختار»[1].

يقدم مالك بن نبي في كتابه إطارا تحليليا لاتجاهات الحضارة الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى، بفعل خروج اليهود من العزلة التاريخية في أوروبا وانتقالهم إلى صدارة المشهد. فالنظر إلى التاريخ الحديث يمكنه أن يضيء لنا هذه الاتجاهات التي عززت قيم العنف والصدام الحضاري، فقد نشبت الحرب العالمية الأولى بهدف تفكيك الإمبراطورية العثمانية، مما نتج عنه صدور وعد بلفور وعزل فلسطين عن المنطقة وتبلور فكرة الوطن القومي لليهود، ونشبت الحرب العالمية الثانية للدفاع عن اليهود في وجه ألمانيا النازية، وهو ما أسفر بعد الحرب مباشرة عن قرار تقسيم فلسطين عام 1947 وإعلان دولة إسرائيل في العام التالي. ومنا هنا يرى مالك بن نبي أن المرحلة القادمة . وقد ألف كتابه في بداية السبعينات قبل وفاته بسنة واحدة 1973 . ستكون مرحلة الحروب بتأثير من الفكر اليهودي الذي «سوف يجعل الحرب القادمة شاملة وتقع نتائجها على الغالب والمغلوب معا»[2].

ولا يرى بن نبي أي حل للمسألة اليهودية في إطار جميع الاقتراحات التي راجت في الفكر الأوروبي الحديث، سواء كانت النموذج القومي أو النموذج الاشتراكي أو النموذج

(1) مالك بن نبي: المسألة اليهودية. ص 82.

(2) المرجع نفسه. ص 104.

الديمقراطي الغربي، بل يرى أن الحل يكمن في نهضة العالم الإسلامي وتبشير العالم بقيم جديدة تنشر السلام والأمن، ويقطع مع منطق الصراعات والحروب.

رابعا: تعريب «المسألة اليهودية»

نشأت الإيديولوجيا الصهيونية في قلب أوروبا، وكرد فعل على واقع أوروبي مسيحي لم يتكرر في أي مكان آخر خارج القارة الأوروبية، كما أنها نشأت كجزء من الثقافة الأوروبية والنزعة القومية الحديثة وعلى نفس النمط الأوروبي، أي كإيديولوجيا استعمارية توسعية استيطانية، وليس غريبا أنها قلدت نفس النموذج الأوروبي الذي حصل في نهاية القرن الخامس عشر مع «اكتشاف» أمريكا، وانتقال الأوروبيين إليها لاحتلالها والاستيطان فيها وإبادة سكانها وإنكار وجود شعب بها. فقد بني الاستيطان الأوروبي في أمريكا على مقولة «أرض بلا شعب» « No man's land »، وبني الاستيطان الصهيوني في فلسطين على مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

وقد ولدت الإيديولوجيا الصهيونية في أوساط المثقفين اليهود الأوروبيين، ولم يكن ليهود العالم العربي دورفيها إلا في فترة لاحقة ولكن كزبناء أو قطيع جرى توظيفه في خدمة المشروع القومي للصهيونية. وقد لاحظ المؤرخ جورج بن سوسان أن يهود الشرق عموما لم يكن لهم حضور في القرن التاسع عشر عندما كان يهود أوروبا وروسيا يتعرضون للاضطهاد، إذ كانوا يعيشون على هامش الأوساط اليهودية الأوروبية بسبب اختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية عنها، فكان يهود أوروبا هم الذين يساندون يهود روسيا ورومانيا[(1)].

لقد جرى التخطيط بشكل دقيق لكي تتحول المسألة اليهودية إلى مسألة عربية وتتخلص أوروبا منها بعد أن أصبحت جمرة حارقة، وهذا لم يكن ممكنا من دون إنشاء الدول القومية في العالم العربي بعد سقوط الخلافة العثمانية، لأن الخلافة كانت تخضع لنظام يختلف عن الدولة القومية الأوروبية الحديثة ويسير وفق نظام الملل، ولذا وقفت بريطانيا وراء حفز الدول العربية على إنشاء جامعة الدول العربية في أربعينيات القرن الماضي، لأن توطين اليهود في فلسطين كوطن قومي ما كان ممكنا من دون خلق الاعتراف لدى العرب بالنزعة القومية والخروج من تحت مظلة الخلافة التي ترتكز على النزعة الدينية؛ ولذا تنتشر اليوم

---

(1) Georges Bensoussan : Juifs en pays arabe. Le grand déracinement 18501975-. Florence Bonnaud (Cartographe) 2012. P 13.

بين المؤرخين اليهود المهتمين بتاريخ اليهود العرب فكرة مفادها أن النزعة القومية العربية هي التي كانت السبب في طرد اليهود خارج العالم العربي، ويحملون القومية العربية المسؤولية عما لحق باليهود العرب، ويقول بن سوسان إنه خلال جيل واحد بين1945-1970 فقد العالم العربي والإسلامي 80 في المائة من يهوده[1]؛ وهذه بالطبع مقولة غير صحيحة ومليئة بالتدليس، لأن هؤلاء اليهود لم يتم طردهم «خارج العالم العربي» كما يزعم هؤلاء المؤرخون بل انتقلوا فقط إلى قلبه، في أرض فلسطين، فظلوا داخل العالم العربي.

وما يشهد للولادة الأوروبية للصهيونية أن زعماءها منذ القرن التاسع عشر هم من الأوروبيين وليس بينهم يهودي واحد من العالم العربي والإسلامي، أمثال هرتزل وموسى هس والبارون إدموند روتشيلد وحاييم وايزمان وهربرت صموئيل وفلاديمير جابوتنسكي وموسى مونفيوري وغيرهم، كما أن مؤسسي إسرائيل الأوائل كانوا من يهود أوروبا، أمثال دافيد بن غوريون وموشي شاريت وإسحق بن زفي وزلمان شازار وإسحق نافون وحاييم هرتزوغ وشيمون بيريز وميناحيم بيغن وغولدا مايير وإسحق شامير وأريل شارون، وليس بينهم يهودي واحد من العالم العربي والإسلامي.

وعندما بدأت الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان يهود أوروبا وروسيا أول المهاجرين، فهم الذين أنشأوا أول الكيبوتسات (المستوطنات الزراعية والعسكرية)، وهم الذين أنشأوا الصندوق اليهودي العالمي لجمع التبرعات، والوكالة اليهودية لتهجير اليهود. ولم يبدأ اليهود العرب في الهجرة إلى فلسطين إلا في النصف الثاني من القرن العشرين بوجه خاص، أي بعد أن اكتمل المشروع الصهيوني وظهرت دولة إسرائيل، فهم لم يكونوا معنيين بالهجرة إلا بعد أن ظهرت الحاجة إليهم لتحقيق التوازن الديمغرافي مع الفلسطينيين وتكثير أعداد اليهود، وما يفسر لنا هذا بوضوح أن يهود إيران على سبيل المثال لم يهاجروا إلا في الثمانينيات، أما يهود إثيوبيا (الفلاشا) فلم يهاجروا إلا في التسعينيات من القرن الماضي، بينما كانت هجرة يهود أوروبا تجري بحماس كبير وعلى وجه الاستعجال منذ نهاية القرن التاسع عشر. وحتى اليوم تتمثل النواة الرئيسية للنفوذ الاقتصادي والسياسي والعسكري في يهود أوروبا فقط (الإشكيناز)، بينما يوجد يهود الشرق(السفارديم) على الهامش، لكي يتبين لنا بأن إسرائيل مشروع أوروبي من حيث التكوين التاريخي ومن حيث البنية السوسيولوجية بداخلها.

(1) Georges Bensoussan : Juifs en pays arabe. Le grand déracinement 1850-1975. Florence Bonnaud (Cartographe) 2012. P 14.

ومع انتقال يهود أوروبا إلى فلسطين انتقلت معهم المفاهيم الأوروبية التي أطرت وجودهم في أوروبا، مثل الإبادة والمحرقة وغيرها، فمفاهيم الإبادة الجماعية Extermina-tion والحل النهائي Solution Finale والهولوكوست Holocauste والمحرقة Shoah والمذبحة Pogrom هي مفاهيم تنتمي إلى الثقافة الأوروبية ولم تعرفها الثقافة العربية الإسلامية، كما أن مفهوم معاداة السامية Antisémitisme مفهوم ظهر في أوروبا فقط لا خارجها، وقد تحدث عنه سارتر باعتباره نزعة أوروبية خالصة، وأبلغ دليل على ذلك أن العرب أنفسهم ينتمون إلى العرق السامي، ولا يمكن لهذا المفهوم أن يكون عربيا إلا إذا كان العرب يكرهون أنفسهم أيضا.

ولذلك فإن ما يقال اليوم عن إبادة اليهود على يد الفلسطينيين والعرب مجرد أكاذيب لتحويل التهم التي كانت تُتهم بها أوروبا إلى العرب والمسلمين، وتحميلهم المسؤولية عن مصير اليهود الذين تخلصوا منهم برميهم على أكتاف العرب والمسلمين وعلى حساب الفلسطينيين، وما نراه من دعم غربي مقدس لإسرائيل ليس سوى محاولة للتكفير عن الذنب الأخلاقي تجاه اليهود طيلة قرون من الاضطهاد والإبادة الجماعية والكراهية، بعد أن تخلص الغرب من «المسألة اليهودية» من خلال إنشاء إسرائيل، ليصبح العرب والفلسطينيون مسئولين عنها أخلاقيا أمام العالم، ولتصبح كل مقاومة للاحتلال معاداة للسامية ومحاولة للقضاء على العرق اليهودي.

لائحة المصادروالمراجع

• بن نبي، مالك: المسألة اليهودية. بيروت، دار الفكر. الطبعة الخامسة، 2012.

• لينين: نصوص حول المسألة اليهودية. القدس، منشورات صلاح الدين. ترجمة جورج طرابيشي. الطبعة الأولى 1980.

• ماركس، كارل: عن المسألة اليهودية. بيروت، دار الجمل. ترجمة نائلة الصالحي. الطبعة الأولى 2003.

• Arendt, Hannah: Sur l'antisémitisme. Les origines du totalitarisme. Paris, Gallimard. 1973.

• Bensoussan, Georges: Juifs en pays arabe. Le grand déracinement 18501975-. Florence Bonnaud (Cartographe) 2012.

• Francfort, Didier: Pascal Ory, De la haine du juif. Essai historique. Revue d'histoire culturelle. N5/2022.

• Herzl, Théodore : L'État des Juifs. Suivi de «Essai sur le sionisme: de l'État des Juifs à l'État d'Israël «, par Claude Klein. La Découverte.2003.

• Hocart, James: La question juive: cinq conférences.Paris, Éditions Fischbache, 1899.

• Luther, Martin, Des Juifs et de leurs mensonges. Traduit de l'allemand par Johannes Honigmann. Introduction et notes par Pierre Savy. Paris, Honoré Champion 2015.

• Poliakov, Léon : Histoire de l'antisémitisme. L'Age de la foi. Calmann-Lévy,1981.

• Sartre, Jean-Paul : Réflexions sur la question juive. Gallimard 1954.

• Traverso, Enzo : La fin de la modernité juive. Histoire d'un tournant conservateur. Paris, La Découverte. 2013.